

دور الآثار

المتاحف والعرب

المتاحف العامة على الصورة التي نراها في الغرب لعهدنا ليست مما عهد في هذا الشرق؛ فإن آثينة منذ الزمن الأطول كان لها متحف دعته رواق الصور، وعرضت رومية أجمل ما أخذته من الصور من آثينة، ولم يكن حتى في القرون الوسطى في أوروبا متاحف، وكانت بدائع الصنائع البشرية تحفظ في دور الملوك وفي قاعات البيع والأديار، حتى إذا كانت القرون الحديثة ونشأ كبار المصورين في إيطاليا وغيرها كثرت المتاحف التي تعرض فيها التصاوير العجيبة ومبدعات القول والأنامل، بحيث كاد أن يكون لكل مدينة معرض منها، وأخذت تخصص تخص بما يهديها إياه الكبراء والملوك، ولما كثر الإحصاء عمّ المتاحف أيضًا؛ فصار للأمم العظمى متحف لغرائب الصناعة في النقش، وآخر في الرسم، وغيرها في أدوات الحرب، وآخر في أدوات الزينة، وغيره في أدوات الموسيقى إلى غير ذلك.

ولا نعلم أن كانت للعرب متاحف أيام مدينتهم على الصورة التي هي اليوم في كل بلد تذوق الحضارة، بل كانت متاحفهم في جوامعهم وقصورهم التي اختاروا لنقشها وتزويقها أمهر صناع أيامهم على نحو ما كان في جامع بني أمية في دمشق، والأقصى في القدس، وبعض جوامع بغداد والقاهرة، وفي الحمراء والزهراء في الأندلس، وفي قصور الخلفاء ببغداد وقصورهم في الأندلس وقصور الفاطميين في القاهرة. وكانت دور

العظماء في الشرق كما كانت في الغرب تتنافس في بدائع الصناعة وتجعلها بحيث يراها من يختلفون إلى قصورهم، ولا تزال البيوت القديمة إلى اليوم في الشام تفاخر بما عندها من مجموعات الصيني والقاشاني والسلاح القديم والحلي والأواني الفضية والذهبية القديمة على كثرة ما طرأ على القطر من الحوادث التي عزت فيها الحاجيات دع الرغبة في الكماليات. وكان اقتناء هذه البدائع في هذه الديار من دلائل الظرف وآيات التعيين والرياسة، كما كان اقتناء الكتب في قرطبة بل في حلب ودمشق إلى عهد قريب.

كان الفاتحون يغنمون في جملة ما يغنمون الطرائف البديعة وأدوات الزينة والتحف. هكذا فعل تيمور فحمل معه من دمشق صناع هذه البدائع وما أبدعوه، وهكذا فعل سليم العثماني فاتح مصر فنهب منها أجمل آثارها التي استطاع حملها وزين بها قصره وقصور جماعته في القسطنطينية. وذكر المؤرخون أن بعض ملوك الأندلس من العرب كانوا يعرضون في قصورهم التماثيل الجميلة من غير نكير، وفيها صور الآدميين وغيرهم.

وكان أهل أوروبا زمن الحرب الصليبية وبعدها يتنافسون فيما يجلبونه من الأقمشة والبسط وأدوات الزينة من الشام، ولما جاء القرن الأخير أخذوا ينقلون إلى متاحفهم ما أبقته صنع الأيدي من أهل المدن القديمة من تماثيل ونصب وأحجار زبر عليها رقم، وفي بعض متاحف أوروبا ولا سيما في متحف اللوفر في باريس والمتحف البريطاني في لندن ومتحف برلين ومتحف إيطاليا وغيرها كثير مما عثر عليه الباحثون من العاديات الحجرية في اليمن والشام ومصر ولا سيما من الديار الشامية. وقد أخذت عادياتنا تسافر من أرضنا منذ أخذ علماء الآثار يبحثون في سهولها وجبالها، وما كتبه كثير من علماء المشرقيات والعاديات في القرن

التاسع عشر دليل يؤيد ذلك، وقد نشروا أبحاثهم في كتب خاصة ومقالات لهم في المجلات الأثرية والعادية والعلمية.

أما نحن سكان هذه الديار فلم تكن لنا عناية بهذا الشأن بل قلَّ جدًا من اهتدى إلى الاحتفاظ بما خبأته الأيام في بطون هذا الصقع، وكنا أزهّد الناس فيها حتى نقلت آثارنا ونفائسنا أمام أعيننا كما نقلت مخطوطاتنا ونحن ضاحكون مستبشرون، وانفع بها القوم هناك وأكملوا بها تاريخ المدينة، ولما وقع الانتباه في الحكومة العثمانية أخذت تمنع بعض الشيء في نقل هذه التحف والطرق، ونقلت بعض ما عثر عليه من المصانع في خرائب صيدا وتدمر وغيرها فزينت بها متحف الأستانة. وقد ندب بعض علماء الآثار من الإنكليز وحفروا بطرق عجيبية مغارة الصخرة في المسجد الأقصى فذهب ما فيها ولم يعلم عنه شيء.

وكم من بعثة أثرية قامت بحفريات وأخذت ما عثرت عليه ولم تأخذ الدولة العثمانية حقها منه ولسان حال الباحثين ما ورد في الأمثال العربية: «لا يحزنك دم ضيعه أهله». وقد طلب منها في مؤتمر الصلح بباريز إعادة ما أخذته هي وألمانيا خلال الحرب العامة من هذه الديار من الآثار. وفي ذلك برهان على مكانة العاديات في نظر الغربيين.

ولقد كنا نزين للحكومة التركية منذ ست وأربعين سنة أن تنشئ لدمشق متحفًا صغيرًا تجعل فيه العاديات وبدائع الصنائع، فكان عمالها يتشاغلون عن ذلك؛ لأنهم يحبون أن يكون كل فضل في الأستانة، وأن تكون سائر الولايات قرى ومزارع للاستعمار على طريقتهم، حتى إذا نادى سورية بالحكومة العربية صحت عزيمة هذه على إنشاء متحف فاتخذت له سنة (١٣٣٧هـ-١٩١٩م) دار المدرسة العادلية من أجمل قصور الفيحاء، وأخذت تجمع بعناية المجمع العلمي ما بقي من الآثار

النفسية. فهو أول متحف عربي في هذه الديار، سار القائمون به على قدم الغربيين في نظامه، ثم بني له بناء خاص في غربي المدينة في المرج الأخضر واغتنى في أسرع مدة غنى يغبط عليه بما اكتشف المنقبون عن العاديات من علماء الغرب.

حياة المتحف العربي بمعاوضة الأمة له، ولم يقصر بعض من لديهم مثل هذه التحف والطرف في إهدائها لتجعل في دار آثار الأمة عنوان ارتقاؤها ونموذجاً

على معرفتها بتاريخها. لا جرم أن هذا المتحف هو البذرة الأولى التي أقيت في هذه التربة المخصبة المهياة لأنواع النماء والإثراء يستفيد منه أهل الأجيال الخالفة ما يعني غناه في تربية عقولهم وعيونهم وأناملهم ويعتبرون بماضي الصناعة عند الأقدمين، وما كان لأجدادنا من الأيدي البيضاء في الفنون الجميلة بين المحدثين.

نشأة علم الآثار^(١)

عنيت الأمم منذ القديم بالفنون الجميلة، وكان حظ كل أمة من هذا الشأن بحسب رقيها وحضارتها؛ كان الأفراد يجمعون الآثار ويتنافسون باقتنائها لا لغاية علمية بل للزينة والتفاخر. ودام هذا حالهم حتى سنة (١٧٦٤م) لما ظهر كتاب تاريخ الفن عند الأقدمين لمؤلفه وانكمان الألماني، وهو أول من وضع أسس هذا العلم الحديث.

إن علم الآثار القديمة فرع من فروع التاريخ، ومن أصعبها مراساً، إذ يحتاج صاحبه إلى قوة انتباه وذوق سليم، فإن هذا العلم لا يقتصر فيه فقط

(١) وضع هذا الفصل الأمير جعفر الجزائري.

على جمع الآثار القديمة في المتاحف ووصفها، بل يتطلب حل رموزها وفهم كنهها، واستجواب تلك الشهود الصامتة، واستنتاج الحقائق منها.

ولقد أصبح النظر في أبحاث علماء الآثار وتحقيقاتهم محتمًا على كل مؤرخ ومحقق، ويستتير بها كل لغوي ومفسر. وكم معضلة تاريخية ولغوية حسمت بفضل هذا العلم. وها هي كلمة فرعون التي لا يجهل اليوم الأحداث معناها، ذهب المتقدمون من علماء اللغة في تفسيرها مذاهب حتى قام علماء الآثار فأظهروا وثائق تثبت أنها لقب كل من ملك مصر. وكم من حوادث جاءت في كتب السلف وفي الكتب المنزلة فذهب الناس في تأويلها، وشك بعضهم في صحتها، ولولا علم الآثار الذي أباط عنها اللثام، وأظهرها للعيان ملموسة محسوسة، لقالوا: إنها أساطير الأولين. أليست جهود الذين اكتشفوا آثار آشور والكلدان ومصر وفارس ويونان وبعثوا ذكرها بعد أن كانت نسيًا منسيًا ألوفًا من السنين، شاهدًا عدلًا على أخبار تلك الممالك.

لم يدون الأقدمون غير النزر اليسير الذي وصلهم من أخبار الشعوب القديمة، وأغفلوا ذكر أكثر الأمم البائدة التي ذهبت أخبارها بزوال أصحابها، ولو اكتفينا بهذه النصوص المشبوهة لما كنا أوفر حظًا ممن تقدمنا بمعرفة أخبار السلف، ويفضل هذا العلم نعرف اليوم أخبار أكثر هذه الأمم، كما نعرف حوادث الأمم في القرون الوسطى، وقد توصلوا لمعرفة ما كان عليه الإنسان قبل عشرات الألوف من السنين، يوم كان يأوي إلى الكهوف، ويققات بالنبات، ويفترس الوحوش، مع أننا نجهل ونحن في القرن العشرين كثيرًا من عقائد بعض الشعوب الضاربة في مجاهل إفريقية وهي معاصرة لنا.

ومن الإنصاف أن لا ننكر فضل من نقلوا إلينا أخبار القدماء؛ لأن هذا الشيء اليسير هو الذي أثار في فئة من الناس حب الاستطلاع، وكانت هذه النصوص نورًا يستضاء به، ومرجعًا يستأنس به. وعلماء الآثار أصدق الناس في هذه الروايات، وهم وإن لم ينكروا وقوعها فلا يجزمون بصحتها إلا متى عثروا على دليل من ذلك العصر يؤيدها، ولأبحاث علماء الآثار ميزة جديرة بالاعتبار فإنها تكون في أكثر الأحيان منزهة عن الأغراض والغايات النفسانية. وقد يخطئ الأثري في استنتاجه، ولكنه لا يعتمد تشويه الحقائق؛ لأن همه الوحيد أن يحيي هذا الماضي البعيد، ويصبح ومعاصروه كأنهم يعيشون في ذاك العصر وذاك المحيط. ومن منا لا يشعر بمثل هذا الشعور عندما يزور متحفًا أو معبدًا أو أطلالًا قديمة. وكيف يمكنه أن ينكر الحقيقة ولسان حال هاته الأمم البائدة يقول:

إن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

لقي هذا العلم الحديث إقبالًا عظيمًا في الغرب فعنيت حكوماتها به، وأصدرت للمشتغلين به أموالًا طائلة، وأنشأت له المدارس والمجامع العلمية أسوة ببقية العلوم. وقد أبدى الأثريون على قلة عددهم نشاطًا عظيمًا، ووضعوا في برهة قصيرة كثيرًا من المؤلفات المفيدة. وقد نال الشام قسطًا وافرًا من هذه الأبحاث، فهي أول بقعة اتجهت نحوها الأنظار وخصوصًا فلسطين؛ لمكانة الشعوب التي استوطنتها منذ الزمن الأطول، وأهمهم الشعب الإسرائيلي، لعلاقة الأمم الغربية بكتابهم المقدس.

البعثات الأثرية الغربية

أوفدت أكثر حكومات الغرب بعثات علمية للتنقيب عن آثار الشام نخص منها بالذكر البعثة الفرنسية التي رافقت حملتها في سنة (١٨٦٠م) والجمعية الإنكليزية للبحث عن آثار فلسطين. ثم تضاعفت الهمم فجاء

من الفرنسيين رنان والدوق دولوين ودوسلسي ودوفوكوين وكلمون غانو ودوسو وفانزان وغيران، ومن الإنكليز روبنسون ومادن وساييس وويلسون وفارين، ومن الألمان أوتوتينيوس، ومن السويسريين ماكس فان برشيم. وأهم الأمكنة التي نقبوا فيها هي تل الحسي وتل زكريا وتل الصافي وتل الجديدة وتل الجزر وتل تعناك وتل المتسلم وعكا ويافا والقدس وصيدا وصور وجبيل وعمريت وجزيرة أرواد وبعلك إلى عدة أصقاع في الشام الشمالية.

وبينا هذه البعثات مجدة في عملها، كانت الدولة العثمانية في سبات عميق مكثفة بمراقبة هذه البعثات لاقتسام الغنيمة وإيداعها متحف الأستانة الوحيد. ولم تفكر بعمل حفريات قط، كما أنها كانت تأبى إنشاء فروع لمتحفها في الشام أو في غيرها من السلطنة العثمانية، وحجتها في ذلك أن الآثار إذا جمعت في مركز واحد، وضم بعضها إلى بعض نتجت من ذلك فوائد علمية وعملية لا ترجى من تعدد دور الآثار، وذلك أسوة بمتاحف أكثر الأمم الغربية، وعملاً برأي أكثر علماء الآثار. ولكنها تجاهلت بأن ما يصلح لأرض لها وحدة تاريخية لا يعمل به في أرض ضمت تحت لوائها شعوباً مختلفة ومدنات متباينة كالإمبراطورية العثمانية.

ولذلك كان جل اهتمام الدولة العثمانية مصروفاً إلى إنماء متحف الأستانة فأهملت أمر الآثار القديمة في ديارها، ولم تعهد إلى أناس يتعهدونها أو يراقبون سيرها، فدرس كثير من البنايات الأثرية البديعة، وأقبل الأهلون في كل ناحية ينقبون عن الآثار القديمة بغية الاتجار بها؛ فأصبحت هذه التجارة ذات شأن في القطر، وغصت متاحف أوروبا بآثار الشام، واقتنى غواة العاديات الأجانب كثيراً منها. وبهذه الصورة وبفضل الامتيازات الأجنبية تمكنت كل من الجامعة الأميركية والكلية اليسوعية

في بيروت وغيرهما من المعاهد من إنشاء متحف خاص، وجمع الدكتور فورد في صيدا، وغيره في حلب من الأجناب بمجاميع مهمة من آثار الشام. ولم يعرف من الشاميين من اشتهر بجمع الآثار، القديمة وكانوا لا يعبأون بها، ولا يقيمون لها وزناً. ومن كان منهم يملك طرفة أو أثرًا يتنازل عنها مقابل دريهمات معدودة، حتى تجردت أكثر البيوت والأسر من نفائسها.

آثارنا وآثار جيراننا

ولقد تبين من الحفريات التي أجريت في الشام ومن الآثار التي اكتشفت فيها أن آثارها تختلف كثيرًا عما وجد من نوعها في الأقطار المجاورة، ولا يرجى أن نعثر في هذه الديار على آثار تثير بجسامتها إعجاب العامة قبل الخاصة، كما هو شأن آثار مصر وآشور وفارس. والسذاجة في الصناعات تغلب على الشاميين منذ القديم، وهذا ناشئ عن طبائعهم ومعتقداتهم. فالشامي في جميع أدواره التاريخية يميل إلى الساذج، وهذا يظهر في صناعته وفلسفته الدينية، وتتجلى في هذه البساطة مواهبه الفنية، جمع بين الساذج والجميل فأحسن الصنع وأبدع. وتقل الآثار المنقولة النفيسة التي اكتشفت في الشام بالنسبة لما وجد في غيرها من الأقطار، وهذا القليل يشهد ببراعة الصانع الشامي وذوقه السليم، حاز بهما مكانة بين أقرانه من فناني بقية الشعوب.

وليس معنى قلة العاديات عدم انتشارها في القطر؛ بل لأنها لم تصل إلينا لأسباب وعوامل شتى؛ ذلك أن تربة الشام رطبة لا تحفظ ما يودع فيها، وأن الشاميين قلما يجعلون في مدافن موتاهم نفائسهم، كما هو شأن المصريين وغيرهم من الأمم القديمة، بل يكتفون بالأشياء الساذجة المتنوعة، فإذا أضفنا إلى خلو القبور من الأغلاق، وما قد كتبه اشمونزار

ملك صيدا على تابوته مخاطبًا به نابشي القبور، ناصحًا لهم أن لا يهتكوا حرمة، مؤكدًا أن لا ذهب ولا فضة في قبره، ندرك من هذا سر ندرتها بين أيدينا. فإذا كان هذا حال ملوكهم فما بالك بالرعية. وخلو القبور منها هو حجة للشام لا عليها، ودليل على سمو عقيدة سكانها، ونضج فكرتهم منذ القديم؛ لأن الشامي كبقية الشعوب السامية يغلب عليه الاعتقاد بأن الجسم مادة تتلاشى مع الزمن ليست جديرة بالإكرام الذي يبالي به غيرهم من الشعوب. ومع هذا فقد انتشرت في الشام عادة وضع بعض الأشياء في القبور وذلك بمؤثرات خارجية واقتباس عادات الغالب، والشام في أكثر أدوار تاريخها خضعت لسلطان أجنبي.

الشام معهد ثلاث ديانات يدين بها اليوم معظم البشر. وهذه الديانات لم تكن ابنة ساعتها، بل هنالك عوامل مهدت لها السبيل مدة قرون عديدة قبل ظهورها، ولذلك يهيم كلاً منا معرفة تطورها.

وهذا ما يزيد في مكانة آثار الشام ويجعل إقبال العلماء عليها أكثر من سواها لعلاقتها الكبيرة بنظامنا الاجتماعي الحاضر. وقد أدركت جمعية الأمم هذا الأمر واحتاطت له خوفًا من المزاحمة واستئثار دولة بهذه الآثار دون سواها، فاشتترطت في المادة (١٤) من صك الانتداب أن القانون الذي سيسن لحماية العاديات يجب أن يستمد روحه مما يدعو إلى التنشيط أكثر منه إلى التثبيط، كما أنها اشترطت على الحكومة المتتدبة عند منحها إجازات بالحفر أن لا تتصرف بشكل يرمي إلى حرمان علماء أي شعب كان تلك الإجازات دون أسباب موجبة، وهكذا أصبح الباب مفتوحًا لجميع الأمم.

تأسيس دور الآثار

وقد تضاعف نشاط البعثات الأثرية الأجنبية عقب الهدنة في سنة (١٩١٨)، وأظهرت قيادة جيوش الحلفاء في الشرق عناية كبرى بالآثار، وعهدت للأخصائيين في جيوشها بدرس آثار الشام ورفع التقارير عنها، وشدت النكير على العابثين بها. ومن جملة مقررات المؤتمر الفرنسي الذي عقد في مرسيلا سنة (١٩١٩) للبحث بشئون الشام العامة اقتراح على الحكومة الفرنسية بإنشاء ديوان للآثار القديمة، والتشبت باسترجاع ما أخذته الحكومة العثمانية من آثار الشام، وقد حققت المفوضية الفرنسية في الشام الاقتراح الأول، فأنشأت لها ديواناً للآثار القديمة، وحذت المفوضية الإنكليزية حذوها في فلسطين وشرق الأردن.

ولم تكن الشام في عهد الملك فيصل أقل عناية من تينك الدولتين؛ فقد اغتتم هذه الفرصة بعض المفكرين وفي مقدمتهم الأستاذ مؤلف «خطة الشام» فاقترحوا على الملك إنشاء متحف في دمشق، فقبول هذا الاقتراح بارتياح عظيم؛ وما لبث الملك أن أصدر أمره بذلك إلى الأستاذ بأمر تحقيقه على أن يكون فرعاً للمجمع العلمي العربي الذي أسسه الرئيس أيضاً. وأنشأت الحكومة السورية متحفاً آخر في حلب، وأنشأت حكومات لبنان وجبل الدروز والعلويين متاحف في بيروت والسويداء وطرطوس، وكذلك أنشأت كل من حكومتي فلسطين والشرق العربي متحفاً جعلته الأولى في القدس والثانية في عمان، وجميع هذه المتاحف نمت بسرعة عظيمة بفضل ما اشترته واستهدته من الآثار، وما نالها مما اكتشفته البعثات الأثرية في مناطقها فأصبحت الشام بتشجيع الحكومات المحلية والسلطات المنتدبة ساحة عمل دولي كبير.

وقامت البعثات الفرنسية بالبحث عن الآثار في صيدا وأم العواميد وكفر الجرة وبيروت وجبيل والقرية وليا في منطقة الحكومة اللبنانية، وفي السويداء وقنات الشهباء، وفي تل النبي مند (قدش القديمة) وفي المشرفة (قطنا القديمة) والنيرب وأرسلان طاش والقصر الأحمر، وقامت بعثتان مختلطتان بأعمال التنقيب في قلعة الصالحية (دوراسا أو روبوس القديمة) على شاطئ الفرات، وفي مدينة تدمر. وتحرت البعثة التشكوسلوفاكية آثار الشيخ سعد وتل أرفاد، ونقبت بعثة ألمانية في رأس العين شمالي الشام. وحصرت البعثات الإنكليزية والأميركية أعمالها في منطقة فلسطين والشرق العربي، فثقبوا عن الآثار في تل (مجدو القديمة) ويسان وسبسطية (سمرة القديمة) وسيشم وبيت جبرين والقدس والتابغة وجرش.

متحف دمشق

تختلف مجموعة دار الآثار في دمشق عن مجاميع متحف الشام للعناية التي بذلتها بآثار القطر الشامي على اختلاف أدواره التاريخية وخاصة العهد الإسلامي. وحري بدمشق عاصمة الأمويين، ومهد الحضارة العربية، أن يكون لها متحف يحيي ذكرى هذا الماضي المجيد، ورغم ندرة العاديات الإسلامية المنقولة في ربوع الشام وأسعارها الباهظة، تمكنت دار الآثار من جمع أعلق قيمة؛ منها مجموعة نقود إسلامية، ومجموعة خزف عربي، ومجموعة مصاحف مخطوطة ومذهبة، ومجموعة خشبية أخص بالذكر منها جانبًا من سدة جامع من خشب الحور الرومي آية في جمال الصنع وحسن الذوق، مزينة بنقوش عربية بديعة، وكتابات قرآنية كوفية مزهرة متناسقة جميلة جدًا، وقد كتبت في أعلاها هذه الفقرة: «ابن محمد بن الحسين بن علي صفي أمير المؤمنين تقبل الله منه، وذلك في شهور سنة سبع وتسعين وأربعمائة» وتابوت مزين

مجموع بشكل حشوات صغيرة منقوشة نقشًا بديعًا وقد كتب على كل جوانبه: «هذا ضريح الست الجليلة الكبيرة المعظمة الملكة فخر الخواتين عصمة الدنيا والدين، بختي خاتون ابنة السلطان الملك معز الدين قيصر شاه ابن السلطان السعيد الشهيد ملك ملوك الروم والأرمن قليج أرسلان، قدس الله روحه ونور ضريحه، وذلك في مستهل ربيع الأول سنة ثمان وأربعين وستمائة». وبين مجموع الكتابات الحجرية لوحتان سلجوقيتان كتب عليهما تاريخ ترميم جانب من جامع بني أمية في شهر سنة (٤٧٥)، وأخرى أيوبية تاريخها سنة (٥٧٥)، ومجموعة واقرة من شواهد قبور أمراء الشام وعلمائها في القرن السابع والثامن هـ. ومما يلفت النظر جرة من رخام أبيض، وعلى القسم الأسفل منها نقوش عربية وعهداها من القرن الثامن للهجرة، وأخرى من الفخار عليها نقوش أشخاص وحيوانات وطيور وزهور محكمة الصنع وكتب في وسطها هذه العبارة: «عز وإقبال وسلامة وسعادة وكرم وغبطة ورفع»، وهذه الجرة فريدة في بابها وهي من صنع العراق في القرن الثالث عشر (م).

ومن أهم الآثار غير الإسلامية مجموعة زجاجية وهي أجمل مجموعات العالم، ومجموعة مهمة من الآثار التدمرية وهناك رأس تمثال أحد عظماء الحثيين يرجع عهده للألف الثانية قبل الميلاد، ونصب الفرعون سيتي الأول وعليه ذكر انتصاره على الحثيين، وطائفة من الآثار الرومانية واليونانية.

متاحف بيروت والسويداء وحلب وطرطوس والقدس وعمان

وجمع في متحف بيروت كثير من الآثار الفينيقية وغيرها أهمها الأواني والحلي التي عثر عليها في مدافن جبيل وفي أقبية معبدها. ويرجع عهد بعضها إلى الألف الثالثة وبعضها إلى (١٨٠٠) سنة قبل الميلاد منها

ناووس الملك أحيرام المتوفى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وقد نقشت على جوانبه صورة الملك يتناول القرابين من أتباعه وبعض الشعائر الدينية، وهو قائم على أربعة أسود. ومما يزيد في شأن هذا الأثر الكتابة الفينيقية التي زبرت عليه وهي أقدم كتابة عرفت من نوعها حتى اليوم، وهذه ترجمتها: «عمل هذا الأران (التابوت) افسبعل بن احرام ملك جبيل لأبيه كي يكون مقره الأبدي، فإذا نصب ملك من الملوك أو حاكم من الحكام العداء لجبيل وأخرج هذا التابوت من تحت التبليط، فيكون خاتور خصمه فيدك عرش ملكه ويعم الخراب جبيل إذا محا هذه الكتابة...».

وبين هذه الآثار آنية خرافية نقش عليها اسم الفرعون امنمعحت الثالث (١٨٥٠-١٨٠٠) قبل المسيح. وآتيتان عليهما اسم امنمعحت الرابع وآنية من الرخام جميلة الصنع مع غطائها، وكتب عليها بالهيروغليفية ما يأتي: «خدام الإله ابن الشمس فليعش امنمعحت إلى الأبد» وصندوق صغير للحلي من حجر كريم أسود محلى بالذهب وشكله على طراز الناووس وعلى الغطاء كتابة هيروغليفية هذه ترجمتها: «فليعش الإله بون سيد الأرضين ملك مصر البحرية والقبلية مع خرون راع المحبوب من ثوم سيد هيلوبوليس الممنوحة له الحياة الأبدية». وجمع في هذا المتحف مقدار كبير من الفخار أهمه الأواني التي عثر عليها في كفر الجرة ويرجع تاريخ صنعها إلى الألف الثاني قبل الميلاد. ولآثار جبيل مكانة تاريخية عظيمة، وهي من أهم ما عثر عليه حتى الآن في الشام.

وكان في متحف السويداء مجموعة حجرية نفيسة أكثرها من العهد اليوناني والروماني ضاع معظمها مع السف إبان الثورة السورية. ومتحف طرطوس

حديث العهد ليس فيه إلا مجموعة صغيرة ليست ذات شأن كبير. وأما متحف حلب فلم يخصص له مكان بعد، ولكن مجاميعه جاهرة ستحفظ

فيه متى هب لها المكان. وأكثر هذه الآثار حثية وأشورية من التي استخرجت في حفريات أرسلان طاش وتل الأحمر وتل أرفاد والنيرب.

وفي متحف القدس خزفية مجاميع ومعدنية تبين تطور نهضة فلسطين والأدوار التي مرت عليها في أهم عصورها التاريخية؛ كما أنه يحتوي على عدد من النواويس من العهد اليوناني وأجملها مما نقش عليه صورة معركة بين اليونان والنساء المترجلات (أمازون) وطائفة آثار من الحجر البركاني من عهد الفرعون سيتي الأول ورعمسيس الثالث التي وجدت في بيسان. وقد حفظت قطع الجمجمية التي وجدت في التابغة ويرجع عهدهما إلى ما قبل التاريخ. وأما مجموعة متحف عمان فأكثرها مما يرجع تاريخه إلى العهد الروماني والبيزنطي.

وبعد فقد عرفنا بما تقدم مقدار العناية التي بذلتها البعثات الأجنبية بآثار الشام غير الإسلامية وإعراضهم عن هذه الأخيرة. لا جرم أن معظم الآثار الإسلامية في القطر محفوظة في الجوامع والمساجد والمدارس تحت إشراف ديوان الأوقاف؛ ولذلك يتحاشى ما أمكن أن يثيروا عواطف عوام المسلمين حتى أن السلطات المنتدبة تركت لدوائر الأوقاف حرية التصرف بهذه الأماكن المقدسة، وقد اكتفت بأن تسدي إليها من حين إلى آخر النصائح لبذل العناية بهذه الآثار؛ لكن أكثر هذه الدوائر في شغل شاغل عنها. فكل يوم نسمع بضياح أثر أو تشويهه لا عن قصد منهم؛ بل لأنهم لا يقدرون قيمة ما هو تحت أيديهم، حتى أصبحت أكثر هذه الأمكنة الأثرية في حالة يخشى عليها من الاندثار، وبذلك يفقد القطر هذه المفاخر التي تشهد بمدنية السلف العظيمة في أزهى العصور الشامية، فعسى أن تحذو الشام حذو شقيقتها مصر وتؤلف لجنة للآثار الإسلامية تعنى بجمعها وتتفقد شئون الأبنية منها.

وقد أنشأت الجمهورية الفرنسية في دمشق معهدًا إفرنسيًا لدرس الآثار وخاصة منها الإسلامية على منوال المعهد الفرنسي في القاهرة. وقد سبق للبعثات الأجنبية أن أسست في القدس في القديس معاهد لدرس الآثار مثل المدرسة الأثرية الفرنسية، والمدرسة الأثرية الإنكليزية، والمدرسة الأميركية للأبحاث الشرقية، ولهذه المعاهد فضل كبير بكشف غوامض تاريخ الشام القديم.

لم تدع السلطان الفرنسية والإنكليزية في منطقتي سورية وفلسطين بابًا إلا وطرقته لنشر الدعاية في الممالك الأجنبية عن آثار الشام ومكانتها. وقد تجلى ذلك في دعوتهم لمؤتمر الآثار الدولي الذي عقد في سورية وفلسطين في شهر نيسان سنة (١٩٢٦) فكانت نتائجه مرضية. وبفضل هذه الدعاية نرى عدد السياح بازياد في كل سنة. ولا شك أن الشام إذا صرفت العناية بفنادقها وطرق مواصلاتها تصبح مقصد السياح من أهل الأرض، وتجنبي من ذلك فوائد مادية وأدبية لا تقدر.